

تطور تصنيف الحديث النبوي حتى القرن العاشر الهجري

(عرض إجمالي)

د. بديع السيد اللحام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قام صحابته رضوان الله عليهم بتأدية الأمانة، وتوزعوا في الأمصار يدعون إلى الدين القويم على بصيرة فهاهو ذا معاذ بن جبل في الشام، وعبد الله بن مسعود في الكوفة، وعبد الله بن عمرو في مصر، وأنس بن مالك في البصرة... وغيرهم المئات من الصَّحْب الكرام دخلوا هذه البلاد وغيرها من الأمصار معلِّمين لكتاب الله تعالى وراوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد وفق الله تعالى سيدنا أبا بكر الصديق إلى جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وجاء من بعده سيدنا عثمان بن عفان فنسخ نسخًا متعددة لكتاب الله تعالى وزَّعها على الأمصار، لتكون المرجع عند الاختلاف.

أما بالنسبة إلى الحديث النبوي الشريف فقد اعتمد الصحابة على روايتها شفاها في الأعم الأغلب إلا ما ورد عن بعضهم أنه كانت لديه صحف قد كتبها يحدِّث منها، واشتهر من بين تلك الصحف:

- (الصَّحِيفَةُ الصَّادِقَةُ) لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ويتجاوز عدد أحاديثها أربعمئة حديث، روى الخطيب البغدادي عن مُجَاهِدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: مَا يُرَغَّبُنِي فِي الْحَيَاةِ إِلَّا خَصَلَتَانِ: الصَّادِقَةُ وَالْوَهْطَةُ، فَأَمَّا الصَّادِقَةُ: فَصَحِيفَةٌ كَتَبْتُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْوَهْطَةُ فَأَرِضٌ تَصَدَّقَ بِهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ كَانَ يَقُومُ عَلَيْهَا. وفي رواية، قَالَ: «مَا آسَى عَلَيَّ

شَيْءٍ إِلَّا عَلَى الصَّادِقَةِ وَالْوَهْطِ» وَكَانَتْ الصَّادِقَةُ صَحِيفَةً إِذَا سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ شَيْئًا كَتَبَهُ فِيهَا، وَالْوَهْطُ أَرْضٌ كَانَ جَعَلَهَا صَدَقَةً.

- (صَحِيفَةُ سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الَّتِي كَانَ يَحْتَفِظُ بِهَا فِي قِرَابِ سَيْفِهِ، وَكَانَتْ تَتَضَمَّنُ بَعْضًا مِنَ الْأَحْكَامِ مِثْلَ أَسْنَانِ الْإِبِلِ، وَالْجِرَاحَاتِ، وَحَرَمَةِ الْمَدِينَةِ ... عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ؟ قَالَ: "لَا، إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قَالَ: قُلْتُ: فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: "الْعَقْلُ، وَفَكَأُكَ الْأَسِيرِ، وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ"⁽¹⁾.

- (صَحِيفَةُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ⁽²⁾ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلَهُ: "لَأَنَا بِصَحِيفَةِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَحْفَظُ مِثِّي لِسُورَةِ الْبَقَرَةِ" وَكَانَتْ قُرِئَتْ عَلَيْهِ. كَمَا ذَكَرَ⁽³⁾ أَنَّ مُجَاهِدَ بْنَ جَبْرِ كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ صَحِيفَةِ جَابِرٍ.

- وَجَمَعَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ أَحَادِيثَ فِي صَحِيفَةٍ رَوَاهَا عَنْهُ ابْنُهُ⁽⁴⁾.

- (الصَّحِيفَةُ الصَّحِيحَةُ) وَقَدْ ضَمَّنَهَا هَمَّامٌ بْنُ مَنْبَهٍ⁽⁵⁾ مَا رَوَاهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ قَدْ وَصَلَتْهَا كَامِلَةً، وَقَدْ قَامَ عَلَى تَحْقِيقِهَا وَطَبْعِهَا الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ حَمِيدُ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَبَلَغَ عَدْدُ أَحَادِيثِهَا (140 حَدِيثًا).

وغير ذلك من النسخ والصحف⁽⁶⁾.

بدء التدوين الرسمي للحديث:

على الرغم مما تقدم من وجود تلك الصحف والنسخ الحديثية إلا أن السمة الشائعة لتلك المرحلة هي الرواية الشفاهية - كما تقدم -، أما تدوين الحديث فقد بقي بين أخذ وردٍّ إلى أن أفضت الخلافة لعمر بن عبد العزيز الأموي (مجدد المئة الثانية) إذ رأى أن يأمر علماء الأمة وحفاظ الحديث فيها بجمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم خشيةً عليها من الضياع مع تطاول الزمن

(1) أخرجه البخاري في العلم، باب في كتابة العلم (رقم: 111). (العقل) الدينة.

(2) الطبقات الكبرى: (7/ 229).

(3) ابن سعد في الطبقات الكبرى (5/ 467).

(4) ينظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (1/ 72).

(5) همام بن منبه بن كامل الصنعاني، أخو وهب، من ثقات التابعين، لازم أبا هريرة، وعاش طويلاً وتوفي بصنعاء (ت: 131 هـ).

(6) ينظر في ذلك كتاب الدكتور امتياز أحمد: دلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث.

وتكاثر الفتن، فأرسل إلى عمّاله على الأمصار كُتُبًا يأمر كُلَّ عامل منهم بجمع ما يرويه حفاظ الحديث في مصره، ويكفي في هذا السياق أن أذكر أنموذجًا من تلك الرسائل، وهي رسالته إلى أبي بكر بن حزم الحزمي - عامله على المدينة المنورة -، فقد جاء فيها: (انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه أو سنة ماضية أو حديث عمرة⁽⁷⁾ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء)⁽⁸⁾، وكذلك كتب إلى أهل الآفاق (انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه)⁽⁹⁾ وهكذا بدأ تدوين الحديث يشيع ويتسع. قال الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري: "اعلم أنّ آثار النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن في عصر الصحابة وكبار التابعين مدونة في الجوامع ولا مرتبه لأمرين:

أحدهما: أنهم كانوا في ابتداء الحال قد هُجُوا عن ذلك كما ثبت في صحيح مسلم⁽¹⁰⁾ خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم.

وثانيهما: لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار " وكان من أوائل من جمع الحديث في هذا العصر من الأئمة:

- ابن شهاب الزهري أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله المدني (ت: 124هـ):
عن سليمان بن داود قال: أول من دوّن العلم ابن شهاب. وعن ابن شهاب قال: "أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا"⁽¹¹⁾.

(7) عمرة بنت عبد الرحمن: تابعة جلييلة أكثرت من الرواية عن الصديقة بنت الصديق السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، كانت عمرة حافظة للحديث وراوية له، وفي توجيه عمر بن عبد العزيز إلى الأخذ عنها إشارة إلى الدور العظيم الذي قامت به المرأة في حفظ السنة النبوية منذ وقت مبكر من تاريخنا العلمي.

(8) تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: 105). وقد أورده البخاري معلّمًا (باب: كيف يقبض العلم) قال: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ: انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْتَبِهُ، فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا تَقْبَلْ إِلَّا حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلْتَفُشُوا الْعِلْمَ، وَلْتَجْلِسُوا حَتَّى يُعَلَّمَ مَنْ لَا يَعْلَمُ، فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا».

(9) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (76/1).

(10) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلَيْمَحُهُ، وَحَدَّثُوا عَنِّي، وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» أخرجه مسلم في الزهد، باب التثبت في الحديث (3004).

(11) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم، باب ذكر الرخصة في كتاب العلم، (336).

- ابن جريج أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز (ت: 150 هـ): عن سفيان بن عيينة قال: سمعت ابن جريج، يقول: "ما دَوَّنَ العلمَ تدويني أحدٌ"⁽¹²⁾، وهو أول من صنَّف الحديث بمكة⁽¹³⁾.
- ابن إسحاق أبو بكر محمد المطلبيّ المدنيّ (ت: 151 هـ)، أحد الأعلام⁽¹⁴⁾، قال الذهبي⁽¹⁵⁾ في حقّه: كان بحرًا في العلم حبرًا في معرفة أيام النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت: 179 هـ)، إمام دار الهجرة، صنَّف (الموطأ) بإشارة من الخليفة العباسي، ربَّه على الأبواب، وضمَّنه أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وآثار الصحابة، وفتاوى التابعين، وما عليه العمل عند أهل المدينة المنورة، قال الحافظ ابن حجر: "توخَّى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم"⁽¹⁶⁾.
- الإمام عبد الله بن المبارك المروزي (ت: 181 هـ) فريد الزمان وشيخ الإسلام⁽¹⁷⁾، وهو أول من صنَّف الحديث بخراسان ...
- وغيرهم من الحفاظ، فكان أول من صنَّف:
- في اليمن معمر بن راشد الصنعاني (ت: 154 هـ).
- وفي الشام الأوزاعي أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو (ت: 158 هـ).
- وفي الكوفة الثوري أبو عبد الله سفيان بن سعيد (ت: 161 هـ).
- وفي البصرة حماد بن سلمة بن دينار أبو سلمة (ت: 167 هـ).
- وفي واسط هشيم بن بشير (ت: 173 هـ).
- وفي مصر الإمام الليث بن سعد الفهمي (ت: 175 هـ).
- وفي الري جرير بن عبد الحميد (ت: 188 هـ).

(12) أخرجه الخطيب في الجامع، باب البيان والتعريف لفضل الجمع والتصنيف (1869).

(13) الرسالة المستطرفة (7)

(14) صاحب كتاب السيرة النبوية التي هذبها أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت: 218 هـ) فصارت تنسب إليه.

الرسالة المستطرفة (107).

(15) في تاريخ الإسلام: (4/ 194)

(16) فتح الباري: (6/1).

(17) تاريخ الإسلام: (4/ 882)

وَكثُرَ تدوين العلم، وكان النَّهْجُ السَّائِدُ عند هؤلاء ومن في طبقتهم أن يجمعوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مُختلَطاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين⁽¹⁸⁾، مع ضمِّ الأبواب بعضها إلى بعض في كتاب واحد⁽¹⁹⁾.

التدوين في القرنين الثالث والرابع:

تعدُّ هذه الحقبة الزمنية أزهى عصور السنة وأسعدها بأئمة هذا الشأن، فقد ابتدأ فيها تصنيف الحديث على المسانيد - وهي جَمْع ما يُروى عن الصحابي في موضع واحد - وممن صنَّف مسنِّداً:
- أبو داود الطيالسي سليمان بن داود القرشي البصري (ت: 204هـ) وقيل: إن مسنده أول مسند صنَّف.

- أسد بن موسى الأموي (ت: 212هـ) .
- عبيد الله بن موسى العبسي (ت: 213هـ) .
- إبراهيم بن نصر السوريني (ت: 213هـ) .
- الحميدي أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي (ت: 219هـ) وهو من مشايخ البخاري، قال الحاكم: كان البخاري إذا وجد الحديث عن الحميدي لا يَعدوه إلى غيره⁽²⁰⁾.
- مُسَدَّد بن مُسَرَّهَد (ت: 228هـ) .
- نعيم بن حماد الخزاعي (ت: 228هـ) .
- ابن أبي شيبه أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه العبسي (ت: 235هـ) .
- ابن راهويه إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي الحنظلي النيسابوري (ت: 238هـ)، وهو قرين الإمام أحمد بن حنبل.
- العدني أبو عبد الله محمد بن يحيى ابن أبي عمر العدني (ت: 243هـ) .
- أحمد بن منيع بن عبد الرحمن أبو جعفر البغوي (ت: 244هـ) .
- عبد بن حميد الكشي (ت: 249هـ) .

⁽¹⁸⁾ اصطلاح أهل الفن على تسمية الحديث المضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم (الحديث المرفوع) فإذا أضيف إلى أحد الصحابة سمي (الحديث الموقوف) وأما إذا أضيف إلى أحد التابعين فهو (الحديث المقطوع) وبعضهم يطلق على الموقوف والمقطوع (الأثر).

⁽¹⁹⁾ ينظر الحديث والمحدثون (244).

⁽²⁰⁾ ينظر الرسالة المستطرفة (67) والحميدي هذا غير الحميدي صاحب (الجمع بين الصحيحين) وسيأتي ذكره.

- ابن أبي أسامة الحارث بن محمد بن داهر التميمي (ت: 282هـ).
 - أبو يعلى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى التميمي الحافظ (ت: 307هـ) وله فوق المئة من العمر، وصنّف مسندين صغير وكبير، وقد قيل في مسنده الكبير: (المسانيد كالأنهار ومسنده أبي يعلى كالبحر).

وقلّ حافظ من حفاظ الحديث إلا وصنّف على المسانيد، ولكن قصب السبق في حسن التصنيف والجمع والفائدة الذي جمع أزمّة ذلك كله هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت: 241هـ) في (مسنده) الذي يُعدُّ مُقدِّم تلك المسانيد وأعظمها شأنًا، وقد بلغ عدد الصحابة الذين خرّج لهم الإمام أحمد (904) صحابي وصحابة.

وترسّم حافظ الأندلس بقي بن مخلّد (ت: 276هـ) خطى الإمام أحمد في جمع المسند، إلا أنه لم يُكتب مسنده العظيم الانتشار والذيع، فلم يصل إلينا منه إلا مقدّمته، وفيها قائمة بأسماء الصحابة الذين خرّج حديثهم في كتابه، وقد بلغ عددهم (1014) صحابي وصحابة⁽²¹⁾. وكان من طريقة هؤلاء في جمع الحديث أفراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بالجمع، فلم يُدخلوا في مسانيدهم أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ولكنهم مزجوا بين صحيح الحديث وضعيفه، سواء صلح الحديث للاحتجاج أم لا، مكتفين بذكر الأسانيد على قاعدة (من أسند لك فقد حمّلك) يقول الحافظ ابن حجر: "أكثر المحدثين في الأعصار الماضية من سنة مئتين وهلم جرًّا إذا ساقوا الحديث بإسناده اعتقدوا أنهم برؤا من عهده والله أعلم"⁽²²⁾.

لذلك نرى أن جمع الحديث وتصنيفه كان له منحا آخر على يد إمام المحدثين - الموصوف بأنه (جبل الحفظ) - الإمام البخاري محمد بن إسماعيل (ت: 256هـ) إذ اقتصر على جمع الأحاديث الصحيحة فقط، في كتابه الصحيح المشهور ب(صحيح البخاري) وتما عنوانه (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه).

وتبعه على ذلك تلميذه الإمام الحافظ الحجّة مُسلم بن الحجاج النيسابوري (ت: 261هـ) في كتابه (الجامع الصحيح).

⁽²¹⁾ لكن الكثير ممن خرّج لهم بقي مختلف في صحبتهم، وبعضهم نص الحافظ ابن حجر على أنهم من التابعين. ينظر بقي بن

مخلّد ومقدمة مسند للكتور العمري (ص: 20).

⁽²²⁾ لسان الميزان (3/ 75).

لقد سلك الشيخان في صحيحيهما طريقة الجمع على الأبواب، وقد سلك مسلکهما في جمع الأحاديث الصحيحة:

- ابن خزيمة أبو بكر محمد النيسابوري إمام الأئمة (ت: 311 هـ) وتام عنوان صحيحه (المختصر من المختصر من المسند الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم)⁽²³⁾ اشترط أن يُخرج ما نقله العدل عن العدل المتصل سنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير قطع في أثناء الإسناد ولا جرح في ناقله الأخبار.

- وأبو حاتم محمد بن حبان التميمي الدارمي البستي الشافعي (ت: 354 هـ) أحد الحفاظ الكبار، وعنون صحيحه ب(التقاسيم والأنواع)، وذلك أنه مشى في كتابه هذا على ترتيب لم يسبق إليه، كما لم يُتابعه عليه أحد، فقد قسمه إلى خمسة أقسام، مبيناً ذلك في مقدمته بقوله: "تدبرت الصحاح لأسهل حفظها على المتعلمين، وأمعت الفكر فيها لثلا يصعب وعيها على المقتبسين، فرأيتها تنقسم خمسة أقسام متساوية متفقة التقسيم غير متنافية:

فأولها: الأوامر التي أمر الله عباده بها.

والثاني: النواهي التي نهى الله عباده عنها.

والثالث: إخباره عما احتيج إلى معرفتها.

والرابع: الإباحات التي أباح ارتكابها.

والخامس: أفعال النبي صلى الله عليه وسلم التي انفرد بفعلها.

ثم رأيت كل قسم منها يتنوع أنواعاً كثيرةً ومن كل نوع تنوع علوم خطيرة ليس يعقلها إلا العالمون الذين هم في العلم راسخون"⁽²⁴⁾.

- و الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه المعروف بابن البيع (ت: 405 هـ) وكتابه المعروف ب(المستدرک على کتاب الصحیحین) مما لم يذكره وهو على شرطهما أو شرط أحدهما أو لا على شرط واحد منهما.
ومن جمع الأحاديث الصحيحة أيضاً⁽²⁵⁾:

⁽²³⁾ طبع مؤخراً تحت هذا العنوان، بتحقيق الدكتور ماهر الفحل.

⁽²⁴⁾ صحيح ابن حبان: (1/ 103)

⁽²⁵⁾ ينظر الرسالة المستطرفة (24-25)

- الحافظ ابن الجارود عبد الله بن علي أبو محمد النيسابوري، المجاور بمكة (ت: 306 هـ). وكتابه (المنتقى) كالمستخرج على صحيح ابن خزيمة.
- والحافظ ابن الشرقي أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن النيسابوري، من تلاميذ مسلم (ت: 325 هـ).
- والحافظ قاسم بن أصبغ أبو محمد البياني القرطبي المالكي (ت: 340 هـ) وكتابه على نحو كتاب (المنتقى) لابن الجارود.
- والحافظ ابن السكن أبو علي سعيد بن عثمان بن سعيد البغدادي المصري، نزيل مصر (ت: 353 هـ)، وسمى كتابه (الصحيح المنتقى)⁽²⁶⁾.
- كما تابع البخاري تلامذته - ومن في طبقتهم - في التدوين المرتب على الأبواب - وإن لم يتابعوه في الاقتصار على الصحيح بل ذكروا في مصنفاتهم الصحيح والحسن وفيها أحاديث ضعيفة - وفي مقدمتهم أصحاب السنن الأربعة :
- الإمام أبو داود السجستاني سليمان بن الأشعث (275 هـ) .
- الإمام الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى (ت: 279 هـ) .
- الإمام ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني (ت: 273 هـ) .
- الإمام النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (303 هـ) .
- وقد عدّد السيد الكتاني خمسة وعشرين كتاباً من كتب السنن، ثم قال: (هذه هي مشاهير كتب السنن وبعضها أشهر من بعض)⁽²⁷⁾.
- وكتب السنن هذه تقتصر على الأبواب الفقهية من الطهارة والصلاة والزكاة ... إلى العتق⁽²⁸⁾.
- إلا ما كان من كتاب الترمذي فهو كتاب جامع⁽²⁹⁾ على غرار الصحيحين من حيث الجمع.

⁽²⁶⁾ وممن صنّف الصحيح ممن تأخر عن هؤلاء في الوفاة - وإن لم يتأخر عنهم في المعرفة والحفظ والإتقان والتصنيف - الحافظ الدمشقي ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الصالحي الحنبلي الزاهد الورع (ت: 643 هـ)، وكتابه بعنوان (الأحاديث الجياد المختارة مما ليس في الصحيحين أو أحدهما) لكنه لم يرتب كتابه على الأبواب كترتيب الصحاح الأنفة الذكر، بل رتبه على المسانيد.

⁽²⁷⁾ الرسالة المستطرفة (37)

⁽²⁸⁾ ينظر الرسالة المستطرفة (32)

وفي هذا العصر أيضاً صنّف شيخ حُفاظ الشّام ومسند الدنيا الإمام الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمي الشافعي الطبراني (نسبة إلى طبرية) (ت: 360هـ) معاجمه⁽³⁰⁾ الثلاثة التي طار ذكرها في الأمصار وسارت بها الركبان:

- المعجم الكبير: وهو مؤلف في أسماء الصحابة على حروف المعجم عدا مسند أبي هريرة فإنه أفرده في مُصنّف، وإذا أُطلق في كلام المحدثين (المعجم) فهو المراد، وإذا أريد غيره قُيّد.

- المعجم الأوسط: وألّفه في أسماء شيوخه، وهم أكثر من ألف، جمع فيه غرائب حديث شيوخه، قال الذهبي: (بيّن فيه فضيلته وسعة روايته، وكان يقول: هذا الكتاب روعي، فإنه تعب عليه، وفيه كل نفيس وعزيز ومنكر)⁽³¹⁾.

- المعجم الصغير: على أسماء شيوخه أيضاً، خرج فيه عن ألف شيخ، يقتصر فيه على حديث أو حديثين عن كل واحد من شيوخه.

استمر العطاء على هذه الوتيرة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، وكان نتيجة ذلك أن ضمّت المصنّفات الحديثية الذي المصنّف في هذين القرنين (الثالث والرابع) جميع ما في المدونات التي دوّنها المتقدّمون، وزادوا عليها ما تلقّوه شفاهاً من شيوخهم مما لم يقيده السابقون في صحفهم وكتبهم.

التصنيف بعد القرن الرابع إلى نهاية القرن العاشر:

نستطيع القول: إنّ (بمجموع الأحاديث النبوية صارت مدوّنةً محفوظةً في مجموع المصنّفات الحديثية التي اكتمل عقدها في هذين القرنين).

إذاً لقد انتهت تقريباً جمع السنن والأحاديث من أفواه الرواة ومن الصحف والنسخ، كما تمّ النظر في أحوال الرواة ومراتبهم، واجتهد الحفاظ في التمييز بين الصحيح وغيره من أنواع الحديث، وجاء الخلف فجهدوا على إظهار تلك الأحاديث المجموعة في المصنّفات الحديثية - والتي أفنى من سبقهم

⁽²⁹⁾ الجامع عند المصنّفين من أهل الحديث ما يوجد فيه من الحديث جميع الأنواع المحتاج إليها من العقائد، والأحكام، والرقاق، وآداب الأكل والشرب والسفر والمقام، وما يتعلق بالتفسير والتاريخ والسير والفتن والمناقب والمثالب ... وغير ذلك. ينظر الرسالة المستطرفة (42).

⁽³⁰⁾ المعجم في اصطلاح المحدثين: ما تُذكر فيه الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان، مرتبين على حروف الهجاء. ينظر الرسالة المستطرفة (135).

⁽³¹⁾ تذكرة الحفاظ للذهبي (3/ 85).

نفوسهم وأعمارهم في تتبعها ورفضها عقوداً جواهر تخلب الأبواب وتشرح النفوس - جهدوا على إظهارها وإعادة رفضها بطرائق جديدة ومناهج مستحدثة.

وخلاصة القول: إن مطلع القرن الخامس الهجري كان بدايةً لعهدٍ جديدٍ في التصنيف يمكن تسميته بعهد (المجاميع الحديثية)، مع تحديد في طريقة الترتيب والتبويب، إلى جانب التهذيب والاختصار والتقريب.

فمن المصنِّفين من جمع بين مجموعة من كُتب من تقدّمهم، ومن أمثلة هذه المجاميع:

- (الجمع بين الصحيحين) لكل من:

* الحميدي أبي عبد الله محمد بن فتوح الأندلسي القرطبي (ت: 488هـ).

* وأبي محمد الإشبيلي عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي، المعروف بابن الخراط، وكان حافظاً، عالماً بالحديث وعلله، عارفاً بأحوال الرواة ومراتبهم، (ت: 582هـ). وغيرهما.

كما قاموا بالجمع بين الأصول الستة (صحيح البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي، وموطأ الإمام مالك⁽³²⁾)، فممن جمع بينها في مصنّفٍ واحد:

* أبو الحسن رزين بن معاوية العبدري السرقسطي الأندلسي (ت: 535هـ) وسماه (التجريد للصحاح والسنن).

* ابن الأثير الجزري مبارك بن محمد مجد الدين أبو السعادات (ت: 606هـ) وسماه (جامع الأصول من أحاديث الرسول) وهو على وضع كتاب رزين، إلا أنّ فيه زيادات كثيرة عليه، وقد رتبّه على الأبواب ورتّب الأبواب على حروف المعجم.

* وقد اختصر جامع الأصول ابن الدبيع الشيباني عبد الرحمن بن علي اليميني (ت: 950هـ) وهو مختصر حسن سماه (تيسير الوصول إلى جامع الأصول).

* ثم قام الفيروز آبادي⁽³³⁾ مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت: 817هـ) بجمع زوائد على جامع الأصول في مصنّفٍ سماه (تسهيل طريق الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول).

⁽³²⁾ يلاحظ أنهم كانوا يعدّون الموطأ سادس الكتب الستة، وقد استقر الرأي عند المتأخرين على عدّ سنن ابن ماجه سادس هذه الكتب.

⁽³³⁾ هو صاحب (القاموس المحيط) نفسه.

ومن قام بالجمع بين مصنّفات الحديث المتقدمة أيضًا شيخُ المفسرين والحفاظ الدمشقيين في عصره وصاحب التصانيف التي حظيت بالانتشار في عصره وإلى يومنا هذا الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي إسماعيل بن عمر الشافعي (ت: 774هـ) وذلك في كتاب فريد سماه (جامع المسانيد والسُّنن الهادي لأقوم سنن) جمع فيه بين الأصول الستة، ومسانيد الإمام أحمد والبخاري ويعلى، والمعجم الكبير للطبراني، وزاد عليها من غيرها. رتبته على مسانيد الصحابة، ورتب المسانيد على حروف المعجم، فيذكر كل صحابي له رواية، ثم يورد في ترجمته جميع ما وقع له في الكتب المذكورة وما تيسر له من غيرها.

وكان ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري البغدادي (ت: 597هـ) قد صنع كتابًا سماه (جامع المسانيد بألخص الأسانيد) جمع فيه بين صحيح البخاري ومسلم، وسنن الترمذي، ومسند أحمد، ورتبه أيضًا على المسانيد.

ومن الكتب التي يمكن أن نسلکہا في سياق المجاميع الحديثية (كتب الزوائد)، وهي مصنّفاتٌ تجمع الأحاديث التي يزيد بها بعض كتب الحديث على بعضٍ آخر، والأشهر أنهم يتبعون الأحاديث الزوائد على الأصول الستة، ومن هذا النوع من التصنيف أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- إتخاف السادة المهرة الخيرة بزوائد المسانيد العشرة: لشهاب الدين البوصيري أحمد بن أبي بكر محمد الكناني الشافعي (ت: 840هـ) يريد بها (مسند الطيالسي، ومسند الحميدي، ومسند مُسَدِّد، ومسند العدني، ومسند ابن راهويه، ومسند ابن أبي شيبه، ومسند ابن منيع، ومسند عبد بن حميد، ومسند الحارث ابن أبي أسامة، ومسند أبي يعلى الموصلي).

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لنور الدين الهيتمي علي بن أبي بكر بن سليمان (ت: 807هـ) جمع فيه زوائد معاجم الطبراني الثلاثة، ومسانيد أحمد وأبي يعلى والبخاري، محذوف الأسانيد مع الكلام على أحاديثه بالصحة والحسن والضعف وما في الرواة من جرح أو تعديل. قال الكتاني: (وهو من أنفع كتب الحديث، بل لم يوجد مثله كتاب، ولا صنّف نظيره في هذا الباب)، وهو مرتّب على الأبواب.

- ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى كتاب (جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد) للشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان المغربي الروداني (ت: 1094هـ)⁽³⁴⁾ فقد اشتمل كتابه على أحاديث أربعة

(34) المدفون بسفح جبل قاسيون من دمشق الشام.

عشر كتاباً من كتب الحديث (الصحيحين، والموطأ، والسنن الأربعة، ومسنند الدارمي، ومسنند أحمد، ومسنند أبي يعلى، ومسنند البزار، ومعجم الطبراني الثلاثة) أي ما جُمع في كتابي جامع الأصول ومجمع الزوائد، مضافاً إليها أحاديث سنن ابن ماجه.

لم يكن كل ما تقدّم من مجاميع يُرضي نَهَمَ إمامٍ كالإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: 911هـ) الذي يقول عن نفسه: (وحبُّ الاستيعاب عند المصنّفين - وخصوصاً عندي - من أكد الواجب والفرض)⁽³⁵⁾ فرام رحمه الله تعالى أن يجمع أحاديث السنة النبوية بأسرها في مصنّف جامع سماه (الجامع الكبير أو جمع الجوامع) وقال في مقدمته: (هذا كتاب حافل، ولبابٌ مُنيفٌ رافِلٌ، يجمع الأحاديث الشريفة كافل، قصدت فيه استيعاب الأحاديث النبوية).
وقد قسم الكتاب إلى قسمين:

القسم الأول: قسم الأقوال جمع فيه الأحاديث النبوية المرفوعة مرتبة على حروف المعجم وقد بين ذلك بقوله: "الأول: أسوق فيه لفظ المصطفى بنصه، وأطوّق كل خاتم منه بفصّه، وأتبع متن الحديث بذكر من خرّجه من الأئمة أصحاب الكتب المعتمدة، ومن رواه من الصحابة رضوان الله عليهم من واحد إلى عشرة، أو أكثر من عشرة، سالكاً طريقةً يُعرف منها صحّة الحديث، وحسنه، وضعفه، مُرتّباً ترتيب اللغة على حروف المعجم، مراعيّاً أول الكلمة فما بعده".⁽³⁶⁾
القسم الثاني: قسم الأفعال جمع فيه الأحاديث الفعلية أو التي تضمنت قولاً وفعلاً، ورتبه على مسانيد الصحابة. قال رحمه الله: "والثاني: الأحاديث الفعلية المحضة، أو المشتملة على قول وفعل، أو سبب، أو مراجعة، أو نحو ذلك مرتّباً على مسانيد الصحابة"⁽³⁷⁾.

وقد ذكر بعد كل حديث من أخرج من الأئمة، كما سن لنفسه منهجا يعرف من خلاله درجة الحديث صحة وضعفاً، وذلك أنه صنّف كتب الحديث إلى ثلاث مجموعات:
المجموعة الأولى: وتضم الكتب التي التزم أصحابها إخراج الصحيح، ك (صحيح البخاري ومسلم وابن خزيمة...) فالعزو إليها مُعلّم بالصحة، إلا إن متعقّباً فإنه يذكر التعقيب.

⁽³⁵⁾ شرح مقامات السيوطي (ص: 951).

⁽³⁶⁾ جامع الأحاديث (4 / 1)

⁽³⁷⁾ جامع الأحاديث (7 / 1)

المجموعة الثانية: تضم قائمة الكتب التي يُكثر أصحابها من إخراج الحديث الضعيف، مثل كتب الخطيب البغدادي وابن أبي الدنيا والديلمي...، فإفراد العزو إلى واحد منها أو أكثر مُعْلِمٌ بِمُطْلَقِ ضَعْفِ الحديث، إلا ما تعقبه، والتعقب هنا على صورتين: الأولى للدلالة على أن الحديث قد ارتقى لدرجة القبول لنظافة إسناده أو لوجود شواهد أو متابعات له.

وأما الصورة الثانية من التعقب فهو لبيان أن الحديث شديد الضعف لا يصلح للاعتبار ولا تجوز روايته إلا لبيان حاله ليُحتَب، كأن يكون الحديث موضوعاً أو منكرًا أو واهياً. المجموعة الثالثة: تضم كتب السنن (الترمذي والنسائي...) وكتب هذه المجموعة وإن كانت تضم الحديث الصحيح والحسن والضعيف، إلا أن الأصل فيما ترويه هو في حيز المقبول، إلا ما تُعْتَب. لقد حوى هذا الكتاب ما لم يحوه كتاب قبله، فزادت عدّة أحاديثه على ستة وأربعين ألف حديث.

هذا ولم يُكتب للسيوطي أن يُكمل ما رآه بما يُرضي طموحه، فقد وافته منيته قبل أن يُتِمَّ عمله على الوجه الذي يأمله، ومن ثم قام بعض من أتى بعده بالاستدراك عليه، ومن استدرك عليه:

- المناوي محمد المدعو عبد الرؤوف بن تاج العارفين الشافعي (ت: 1031هـ) وكتابه (الجامع الأزهر من حديث النبي الأنور) جمع فيه ما فات السيوطي ذكره من أحاديث (المستدرك للحاكم، ومسانيد الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى، ومعاجم الطبراني الثلاثة، وغيرها) ولم يذكر شيئاً مما فات السيوطي من الأصول الستة لسهولة تداولها وكثرة تداوله وسهولة الوصول إليها.

- أبو العلاء إدریس بن محمد بن إدریس العراقي الفاسي (ت: 1184هـ) ذيل على (الجامع الكبير) ما فاته فجمع نحوًا من عشرة آلاف حديث في طُرِّ على هامش نسخته⁽³⁸⁾.

وبعد: فهذا عرض موجز لبعض ما نالته السُّنة النَّبوية من عناية وجهد في سبيل صيانتها والحفاظ عليها من انتحال المُبطلين، وتحريف الغالين، وهو غيَضٌ من فيضِ لجهودٍ مُستمرةٍ لن تتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها، مصداقًا لوعده في كتابه الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

⁽³⁸⁾ ينظر فهرس الفهارس والأثبات (821/2).